ملاحظات الزمخشري على لغة عصره : دراسة في ضوء اللسانيات، لعبدالعزيز أحمد عبدالله ناجي [١]

عرض ونقد: عباس علي السوسوة

أستاذ اللسانيات بجامعتى تعز والملك خالد

تتناول هذه الرسالة ملاحظات الزمخشري (ت٥٣٨ هـ) على لغة عصره في سبعة من آثاره: تفسير الكشاف ، وأساس البلاغة ، والفائق في غريب الحديث، والمستقصى في أمثال العرب ، وربيع الأبرار ، والمحاجاة بالمسائل النحوية، وشرح فصيح ثعلب. والهدف تحديد الظواهر اللغوية في تلك الملاحظات، والكشف عن منهجه في تناولها، وأغراضه من رصدها في كتبه، ومحاوله قياس التغير في المستويات اللغوية .

استعمل الباحث المنهج الوصفي ، مع الاستعانة بالمنهج التاريخي ،وقسم الرسالة إلى تمهيد موجز عن حياة الزمخشري (٩ص) ، وأربعة فصول ، ثم خاتمة تلخص أهم النتائج التي توصل اليها مع قائمة بالمراجع العربية والانجليزية ومستخلص بالانجليزية .

تناول في الفصل الأول (١٢-٤٢) الظواهر الصوتية في الملاحظات كالإدغام : إدغام الهمزة في التاء الفوقية والياء التحتية ، وإدغام الراء في اللام ، وتناول إبدال الصوامت ، إبدال الهمزة ياء أو واوًا ،وإبدال الباء نونا ، وإبدال الواو غينا ،وإبدال القاف كافا ، والسين زايا ، والدال ذالا والعكس ، ثم إبدال اللام ميما والنون ميما ، والباء ميما . ثم إبدال أحد الصامتين المتماثلين .

وتحدث عن الخلط بين الضاد والظاء ،ثم الدال المكسورة في عبدِالله ، بحيث صار علما مختلفا عن عبدُ الله (بضم الدال). وانتقل الى تشديد المخفف وحذف الصامت، والتخلص من الهمزة، والوصل والفصل .

---

(١) رسالة ماجستير من كلية الآداب بجامعة تعز نوقشت يوم ١٠ من أغسطس ٢٠١٤م تكونت لجنة المناقشة من : عباس علي السوسوة (مشرفا ورئيسا) و د. فهمي حسن يوسف (مناقشا خارجيا جامعة عدن) ود. جلال عبدالله الحمادي (مناقشا داخليا جامعة تعز).

بعد ذلك انتقل إلى الملاحظات المتعلقة بالصوائت والانتقال من : فتح إلى كسر ، وكسر إلى فتح ، وضم إلى كسر ، وفتح إلى ضم، وانتقال من حركة طويلة إلى نصف حركة والعكس ، وتقصير الصوائت وإطالتها ، ثم تسكين المتحرك وتحريك الساكن ، وانتهى بالإمالة .

وتناول الفصل الثاني (٤٣-٨١) الظواهر الصرفية، كالاشتقاق من أسماء المعاني المصدرية، ومن ألفاظ المعاني الجامدة ، ومن أسماء الأعيان ثم انتقل الى صيغ جمع التكسير ، ثم ما جاء بألف وتاء مزيدتين . بعد ذلك وقف أمام بعض المصادر الشائعة مثل:فِسّار ،وانبتات ، ونفج ونفاجة ،وتناطح ونطاح ،وحسبان وحساب ، وخصاصة وخصّة، ولعِب ولِعب ، وكذا المصدر الصناعي .

وعرض للتذكير والتأنيث ، ثم لفعلان في الوصف بدلا من أفعل ، وفعَلَ وأفعلَ. بعد ذلك عرض الباحث لملاحظات الزمخشري حول النسب والتصغير بصيغه الثلاث ، والتصغير المستعار من الفارسية باللاحقة (ويه) .

ثم عرض الباحث للملاحظات حول صيغ الأفعال : فعل وتفاعل، استفعل وتفعّل، فعل وتفعل ، انفعل مطاوعاً لأفعل، أفعل وافتعل، فعل وافتعل ، فعّل وأفعل.

بعدها جاء إلى حركات عين الفعل وانتقالها من : فعل يفعَل إلى فعِل ، ومن فعِل يفعَل إلى فعِل يفعُل ، ومن فعَل يفعِل إلى فعَل يفعُل . بعد ذلك وقف قليلا عند أفعل التفضيل المباشر وغير المباشر ، ثم كان بقية الفصل عن أسماء الفاعل والمفعول والمكان، والآلة، وصيغ المبالغة ، والزيادة في بنية الكلمة لزيادة المعنى أو لغرض آخر ،ثم اختزال بنية الكلمة .

وفي الفصل الثالث (٨٢-٩٩) تناول الظواهر النحوية : فعرض لملاحظات الزمخشري حول الإعراب ، وتسكين أواخر بعض الكلمات المعربة ، والإتباع للاحق ، وتقصير الحركة الطويلة علامة للجزم والبناء ، وجزم ما ينزل منزلة الطلب .

وتناول بعض أنواع الحذف ؛ كحذف خبر لا ، وحذف مفعول شاءَ وأراد ، وحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه وحذف المقسم به ، ومرجع الضمير ،وجملة الجواب، والمبتدأ ، وحذف الجملة بعد نعم . وفي المصاحبة تناول مصاحبة حروف الجر للأفعال والمشتقات ،ثم المصاحبة في غير ذلك.

وتناول التعدية في الأفعال :غضب ووهم وتربق وارتد ، كما تحدث عن زيادة ما ،وتقدم الجار والمجرور، والحال المركبة ، والتعجب ، ولا المقترنة بواو العطف.

في الفصل الرابع (١٠٠-١٥٣) تناول بعض ملاحظات الزمخشري في المستوى الدلالي، فتحدث عن استمرار الدلالة بتوسيع المعنى وتضييقه ، وانتقال مجال الدلالة بعلاقات المجاز المرسل ، كما تحدث عن المشترك اللفظي ، وانحطاط دلالة بعض الالفاظ ، وعن المجاز العقلي . وختم الباحث الفصل بقضايا أخرى هي :التعابير الاصطلاحية ، والأمثال، والنداءات التي منها : نداءات السوق، ونداءات المستجدين ، وأدعية البدو ، ونداءاتهم بعض حيواناتهم . كما نقل كثيرا من أحاجيهم وكناهم وألقابهم وأراجيزهم . وختم الفصل بملاحظات معجمية شغلت خمس صفحات .

تلا ذلك إطلالة على منهج الزمخشري في ملاحظاته المستهدفة بالدراسة ، ثم خاتمة فيها أهم النتائج التي توصل اليها الباحث، وهي :

١- الزمخشري من أكثر اللغويين القدماء ملاحظاتٍ على لغة عصره .

٢- أكثر ملاحظاته في الجانب الدلالي ، ثم في الصرفي ،ففي الصوتى ،ثم في النحوي .

٣- البيئات التي] صرح بالأخذ عنها أكثرها مكة المكرمة ،فالحجاز ،فالسروات .

٤- القبائل التي صرح بها أو عزا إليها قليلة ، قياساً إلى كثرة مانسبه إلى العرب دون تحديد، وأكثرها ورودا عنده هذيل.

٥- الزمخشري يرى امتداد عصر الاحتجاج إلى ما بين الثلث الأخير من القرن الخامس للهجرة والثلث الأول من القرن السادس ،لكن من بيئات وقبائل معينة .

٦- اتبع الزمخشري فيما نقله عنهم منهجا وصفيا كما فعل الرواد الأوائل أبو عمرو بن العلاء والخليل وسيبويه ، وزاد فاستعمل منهجا تاريخيا يرصد التغير اللغوي في عصره : صوتيا وصرفيا ونحويا ودلاليا .

٧- في الظواهر الصوتية أدى عامل السهولة وتحقيق الخفة والسرعة أثرا كبيرا في حدوث التبادل بين الصوامت ، وحدوث الحذف أيضا .

٨- جاء الكثير من الظواهر في الصوائت لتحقيق التماثل والانسجام ، وجاء القليل في تحقيق التغاير.

٩- أكدت الدراسة الرأي القائل أن التطورات اللغوية الصوتية في اللهجات لا تخضع لاتجاه محدد مطرد حتى يسمى قانونا ،واقترحت أن تسمى عوامل أو أسبابا ونحو ذلك .

١٠- الخلط بين المؤنث والمذكر امتداد لظاهرة قديمة في الفصحى.

١١- اشتقت في عصر الزمخشري صيغ صرفية – لم تسمع من قبل – لموافقتها القياس سداً لفجوة معجمية أو صرفية.

١٢- تبادل صيغتي فعلَ وأفعلَ ترجع جذورها إلى عصر الاحتجاج وإلى القراءات القرآنية. وبدأت تشيع وتعد لحنا في القرن الثاني الهجري . وليس كما قال د. عبد العزيز مطر إنها شاعت من القرن الثالث .

١٣- أيدت الدراسة رأي القائلين بأن كثرة استعمال اللفظ تؤدي الى تغييره ، وغالبا ما يكون ذلك – حسب ملاحظات الزمخشري – بالحذف والتخفيف والتماثل.

١٤- ظاهرة حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مستفيضة في كل العصور .

١٥- ملاحظاته في المستوى النحوي قليلة جداً ،وهى امتداد للقديم إلا في شيء يسير جداً في المصاحبة والتعدي .

١٦- آمن علماء العربية بالتطور لكنهم حصروه في عصر الاحتجاج ، أما الزمخشري فقد رصد جانبا كبيرا منه في عصره .

١٧- ملاحظاته في الجانب الدلالي كثيرة وثرية ، تمثلت فيها مظاهر التطور بتوسيع الدلالة أو بتضييقها، أو لعلاقات المجاز المرسل: السببية والمسببية والجزئية والحالية والمجاورة. وهناك انتقال مجال الدلالة الى الضد.

بدأ المناقش الخارجي د.فهمي حسن فأثنى على الرسالة وصاحبها .

وبدأ بذكر حسنات الرسالة فقال :

١- جمع الباحث ملاحظات الزمخشري التي جاوزت٣٢٠ ملاحظة في سبعة من كتبه ودرسها على أربعة مستويات . وهذا مركب صعب، لكنه استطاع تذليله .

٢- جمع المادة العلمية غير المباشرة معتمدا على ١٢٨ مرجعا ، مما يفصح عن الجهد الذي بذله الباحث للإحاطة بالمادة (الواقع أن عدد المراجع يربو على ١٦٠) .

٣- حدد الباحث المادة بصورة مرضية، وكانت الصياغة العلمية سليمة .

٤- تقسيم الرسالة منسجم ومتوازن مع مادة البحث .

٥- شخصية الباحث واضحة ، إذ علق على كل ملحوظة درسها ،وأحيانا كان يعلق على آراء بعض العلماء ويرجح ويطرح رأيه بأدب ، ويذكر ما يشابه الملاحظة في بعض الكتب ويربطها باللهجات المعاصرة .

٦-كانت بصمات المشرف واضحة ، فكثيرا ما استشهد الباحث برأيه .

*** ثم انتقل الى المآخذ (وهذه أصلحت بعد المناقشة) :**

١- خلوها من الملخصين العربي والانجليزي .

٢- عدم وضع علامه تنصيص في بعض المواضع المنقولة حرفيا .

٣- عدم ذكر الجزء والصفحة عند توثيق النقل من المعاجم الصغيرة اكتفاء بذكر المادة .

٤- كثرة تواضع الباحث .

٥- لم يخرّج حديث (سبقك بها عكّاشة) ، وترك بعض الشعر دون ضبط .

بعدها تحدث المناقش الداخلي جلال عبدالله الحمادي بادئا بذكر محاسن الرسالة التي منها :

١. انها رسالة شائقة ماتعة ، وموضوعها جيد وجديد .

٢. شخصية الباحث بارزة بروزا لافتا للنظر في كل صفحة ، فهو يناقش مناقشة جادة، وإن لم ينف ذلك خفوت في بعض المواضع .

٣. يصدق على الرسالة أنها لب بغير قشور .

٤. أفاد من مراجعه جميعا وتأثر خُطا أستاذه في التاريخ لبعض الظواهر .

٥. نتائج الرسالة ممتازة.

* بعدها انتقل الى المآخذ. (وقد عمل الباحث بالاتفاق مع مشرفه على ما يجب إصلاحه منها):

١- عدم إضافة ((في ضوء اللسانيات)) في العنوان (أضيف).

٢- مخالفة ترتيب المادة في موضعين (أصلحا بعد المناقشة).

٣- لم يذكر رقم الصفحة السابقة المشار إليها (وهذا بسبب أن الرسالة كانت تنتظر تعديلات المناقشة ، وقد تم).

٤- إفراد التعابير الاصطلاحية بمبحث وعدم دمجها بمباحث المجاز ٠

٥- نتيجة ((الزمخشري من أكثر العلماء القدماء ملاحظات على لغة عصره)).

أليست مبالغة ؟

بعد ذلك شكر المشرف للمناقشين الفاضلين ملاحظاتهما ، ودعا الطالب الى الأخذ بما يفيد في تحسين عمله ودافع عن الطالب في مواضع ومنها هذه النتيجة الأخيرة ، فذكر أنه كان يقع على بعض الملاحظات في كتب للرجل ليست موقوفة على لحن العامة ، فيسجلها وإذا كان الباحثون قد نوهوا بما سجله الأزهري في ((تهذيب اللغة)) – في حين أنه مقصور على الأخذ من القرامطة الذين وقع في إسارهم نحو عامين إلا قليلا-فالزمخشري لم يقتصر على بيئة مكة التي جاور فيها . واذا كان الأزهري قد نقل ما نقل توكيدا للمسموع السابق ، فالزمخشري جاوزه الى التغير في جل آثاره ،علاوة على أن الازهري لا تجد له مثل ذلك خارج (التهذيب).

استغرقت المناقشة بأكملها منذ تقديم الطالب ملخصه حتى إعلان النتيجة ساعتين، بعدهما أوصت اللجنة بمنح الطالب درجة الماجستير في الآداب تخصص اللسانيات بتقدير ممتاز، وأوصت بطبع الرسالة .

و الحمد لله أولا وآخرا